



قراءة في نصوص مؤرّخة للعلاقات المرينية المملوكية

سالمي زبير

طالب دكتوراه بقسم التاريخ ، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة2

ملخص:

L'article examine les correspondances échangée entre les Etats Almirinide et l'état mamelouk . Et il etudés les relations politiques. Ainsi que les positions communes des problèmes du monde musulman.

مقدمة:

إن الباحث والدارس لتاريخ العلاقات المغربية الشرقية في العصر الاسلامي على العموم، يلمس ارتباطا ومتانة تميزها عن باقي الأقطار الإسلامية الأخرى، وهذا ناجم عن جملة من العوامل التي ما انفك المغرب أن يكون انعكاسا للصورة الشرقية فيها، كوحدة الدين، وتبادل التأثير والتأثر المذهبي والعقائدي، والرحلة الحججية والعلمية، بالإضافة إلى العلاقات السياسية التي ربطت بين حكام هذين النطاقين من العالم الاسلامي، ولعل أبرز مظاهرها، العلاقات المرابطية العباسية في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين والخليفة المستظهر بالله¹، كما يمكن الاستشهاد بالعلاقات الموحدية الأيوبية، والتي تمت بين السلطان المنصور الموحي والناصر صلاح الدين²، على أن موضوع العلاقات المغربية الشرقية يحتاج كل قسم منه إلى تفصيل واستفاضة.

وقد اعتبرت الدولة المرينية أقوى دولة في المغرب الإسلامي عقب سقوط دولة الموحدين، وهذا استنادا إلى مجموعة من العوامل التي شهدتها فترة القرن السادس الهجري وما بعدها، إضافة إلى القيم والمبادئ التي قامت عليها الدولة، وأكد أمرها هو مشروع الوحدة المغربية، وحمل لواء الجهاد في الأندلس³. وغير بعيد عن هذه الأسس والمبادئ، فإن دولة المماليك بدورها كان لها نفس الأفق السياسي في محاولة توحيد المشرق الإسلامي تحت راية

1 - راجع مغراوي، منهج ابن الخطيب في التأريخ للمشرق من خلال تحقيق الجزء الأول من كتاب أعمال الأعلام فيمن بوع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من كلام، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، 2000، ص 201.

2- نفسه، ص 203.

3- عبد الرحمن الأعرج، علاقات دولة المغرب الإسلامي بدولة المماليك سياسيا وثقافيا بين القرنين السابع والتاسع الهجريين/13-15م، رسالة دكتوراه في تاريخ المغرب الاسلامي، قسم التاريخ والآثار، جامعة أوبكر بلقايد، تلمسان، 2013 ص 113.



واحدة، إضافة إلى حملها راية التصدي للأخطار الخارجية سواء ما تعلق ابتداء بالصليبيين، أو الخطر اللاحق ممثلاً في الخطر المغولي، لذا فإنه من الطبيعي أن تنشأ علاقات سياسية بين دولتين متكافئتين تحملان نفس المشروع، كما أن الممالك كانوا يرون في الدولة المرينية أنها الأحق بقيادة المغرب الإسلامي.¹

1. بداية العلاقات بين الدولة المرينية ودولة الممالك:

نحا سلاطين الدولة المرينية نحو أسلافهم من حكام بلاد المغرب المتقدمين، على ربط العلاقات السياسية والمراسلات السلطانية مع مختلف الدول والأقطار الإسلامية في المشرق، توطيداً لركائز حكمهم، وحفظاً لمصالحهم، وجلباً للتأييد من الدول القوية بجعلها من أحلافهم، وبلا شك فقد تجسّد هذا المطلب في دولة الممالك التي عُدت من أقوى الدول الإسلامية، استناداً إلى جملة من العوامل السياسية والاقتصادية، وكلمتهم المسموعة لدى أقوى الدول في المشرق الإسلامي أو في أوروبا.

وفي صدد الحديث عن العلاقات المرينية المملوكية خصوصاً، يقول ابن خلدون: "... ولم تزل ملوك المغرب على القدم ولهذا العهد، يعرفون ملوك الترك حقهم ويوجبون لهم الفضل والمزية، بما خصّهم الله من ضخامة الملك، وشرف الولاية بالمساجد المعظمة، وخدمة الحرمين الشريفين، وكانت المهاداة بينهم تتصل بعض الأحيان، ثم تنقطع بما يعرض في الدولتين من الأحوال...".² فيفيدنا هذا القول كون بني مرين حرصوا على احترام الممالك لما لهم من فضل في خدمة الحرمين الشريفين، وما ملكوه من رقعة جغرافية مترامية الأطراف.

أمّا عن العلاقات والمراسلات فإنها توطّدت في عهد السلطان أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، الذي عاصره السلطان المملوكي محمد الناصر بن قلاوون الصالحي، إلّا أن الجدير بالإشارة ذكر بعض النصوص المشرقية التي تفيد بأن جذور العلاقات قد بدأت منذ عهد الملك المنصور قلاوون.³ فقد أورد لنا ابن حجر العسقلاني⁴ صاحب فتح الباري، ما يمكن

1- نفسه، الصفحة نفسها.

² - عبد الرحمن بن خلدون، العبروديان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج5، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص 479.

³ - محمد المنوني، ورقات عن الحضارة المرينية في عصر بني مرين، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش، ص 129.

⁴ - شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن معمر الكناني العسقلاني ثم المصري الشافعي (773-852هـ/1370-1449م) فقيه ومحدث وأديب ومؤرخ، ينظر: السخاوي، الضوء الأملع لأهل القرن التاسع، ج2، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 36. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: ابراهيم طرخان ج15، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1972، ص 532.



اعتباره توثيقاً وتاريخاً لهذه الإرهاصات بقوله: "... أنبأني غير واحد عن القاضي نور الدين بن الصائغ الدمشقي قال: حدثني سيف الدين قليج المنصوري¹ قال: أرسلني الملك المنصور قلاوون إلى ملك المغرب بهدية، فأرسلني إلى ملك الفرنج في شفاعة فقبلها..."²

ومما يجب التنويه إليه أنّ النصّ جاء مجملاً بقول ملك المغرب، والظاهر هنا أنه ملك بني مرين³، لما تتميز به العلاقات المرينية عن غيرها من علاقات دويلات بلاد المغرب، كما أنّ النصّ افتقر إلى تاريخ السفارة، عدا الإشارة إلى عهد السلطان المملوكي المنصور الذي حكم مصر بين سنتي 678-689/1280-1290، حيث عاصره في هذه الفترة أميران في فاس هما أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني الذي دامت عهده من 656/1258 م، 685هـ/1286، أما الثاني فهو ابنه أبو يعقوب يوسف⁴، وعليه فإننا لا نستطيع تحديد الملك المغربي المقصود بهذه السفارة، كما أنّ النصّ لم يوضح لنا جلياً هدف السفارة بوضوح هل هو خاص بالجانب المملوكي أو الجانب المريني فيما يخص مسألة الشّفاعة المذكورة.

2. العلاقات في عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني:

توطّدت العلاقات المرينية المملوكية في عهد السلطان أبو يعقوب يوسف⁵ الذي تولّى عرش فاس سنة 685هـ/1286 م إلى أن توفي سنة 706هـ/1307 م وهو محاصر لمدينة تلمسان عاصمة بن عبد الواد⁶ وكان يعاصره في القاهرة الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون على ولايته الثانية من 689هـ/1299 م إلى 741هـ/1341 م.

¹ - قلعج أو كلعج بالتركية تعني السيف ويقصد به سيف الدين، وقد نعت بالمنصوري نسبة للمنصورة، بن قلاوون وقد صُحّف اسمه إلى قليج أو مليج، عبد الهادي التازي، الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب، ج2، دار نشر المعرفة، الرباط، ص 245.

² - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تر: محب الدين الخطيب، ج1، دار الكتب السلفية، ص 42.

3- محمد المنوني، المرجع السابق، ص 129.

4- عبد الرحمن ابن الأعرج، المرجع السابق، ص 114.

5- أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، تلقب بالناصر لدين الله ولد سنة 638هـ ويرى له في الجزيرة الخضراء سنة 685هـ بعد وفاة أبيه، سار في الرعية سيرة حسنة، وأجاز للأندلس للجهاد وصالح صاحب غرناطة كما عمل على حصار تلمسان، مات مقتولاً من قبل خصي من فتيانه سنة 706هـ، ينظر: ابن أبي الزرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، 1972، ص 364، ابن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ص 436-485.

6- ابن الأحمر، روضة النسر في دولة بني مرين، المطبعة الملكية، الرباط، 1962، ص 17.



وقد تجلت معظم السفارات بحمل الهدايا الملكية وتبادل الرسائل السلطانية المتعددة الأغراض، خاصة منها ما تعلق بالتوصية بالركب الحجيجي، والذي أوكلت له في بعض الأحيان مهمة نقل هذه الرسائل، بالإضافة إلى سفارات أخرى اختلفت أغراضها، ونسجل في هذا العهد ثلاث سفارات خرجت من المغرب إلى مصر، وسفارة مملوكية وفدت على المغرب الأقصى¹.

أ - سفارة سنة 700هـ/1301م:

تعتبر هذه السفارة أول بعثة بادري بها ثالث سلاطين بني مرين إلى مصر المملوكية، حيث يذكر في هذا الصدد ابن خلدون قوله: "حضر في سنة سبعمئة وزير من المغرب في غرض السفارة"² كما يضيف في نفس الموضوع نصاً آخر ضمّنه كتاب الرحلة فيقول: "وكان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ثالث ملوك بني مرين أهدى لصاحب مصر عام سبعمئة وهو يومئذ الناصر محمد بن قلاوون، هدية ضخمة، أصحبها كريمة من كرائم داره، احتفل بها ما شاء"³ فقد أجمع النّصين على بعث السفارة المذكورة سنة سبعمئة للهجرة إلا أن النّصين مجملين غير مصرحين بالهدية أو عن قيمتها، ويفترض أنها كانت نفيسة ومتعددة المحتويات، باعتبارها تأتي في مقام التأسيس للعلاقات الأخوية بين الدولتين، لأنه من خلال الهدايا تقاس غنى الدول وقوة جانبها وسمو سؤدها.

وهنا لابدّ من الاستشهاد بالنّص الذي ساقه لنا ابن الخطيب في وصف الهدية، وما تألّفته من الأغراض فيقول: "... فبعث إليه أمير المسلمين أبو يعقوب هدية مشتملة على خيل عديدة وبغال رومية، وغير ذلك من الأمتعة، زعموا أن الدواب بين فرس وبغل وجمل بلغت سبعمئة دابة"⁴.

لقد ترأس وفد السفارة الفقيه أبو الحسن التنسي⁵ والأمير الوزير علاء الدين أيدغدي الشهرزوري⁶ الذي لفت انتباهه المكانة التي تبوأها أهل الذمة في الدول المملوكية، فقام

1- المنوني، المرجع السابق، ص 130.

2- عبد الرحمن ابن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج5، ص 416.

3- عبد الرحمن بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، علق عليها: محمد بن تاويت الطنجي، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1951م، ص 371-372.

4- ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بوع قبل الاحتلام وما يجر ذلك من شجون الكلام، تر: أحمد مختار العبادي، إبراهيم الكناني، ج1، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964، ص ص 638-639.

5- ابن خلدون، التعريف... المصدر السابق، ص 334.

6- المقرئزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تر: مصطفى زيادة، ج2، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1972، ص 09.



بإخطار الملك النَّاصر بعواقب هذا الأمر، ونصح به بإقصاء هذا العنصر من أجهزة الدولة¹، وهذا يدل على أنَّ السفارة قد أدت أغراض غير التي صرّفت لأجلها.

ب- سفارة سنة 703هـ/1303م:

انطلقت هذه السفارة من المغرب الأقصى مع الركب الحجيجي بغرض التوصية بهم² ويفترض - استنادا إلى تاريخ السفارة - بأنَّ البعثة التي سبقتها قد حققت رجاءها في ربط علاقات صداقة حقيقية بين الدولتين، وإلا لما انتدبها السلطان يوسف في هذه الفترة الغير طويلة، كما أنَّ هذه السفارة أُرِدَّت سابقتها بعد ثلاث سنوات بسبب الفتن والحروب التي شهدتها المغرب الإسلامي³، وهذا ما دلَّ عليه نص ابن خلدون التالي: "واستجد أهل المغرب عزما في قضاء فرضهم، ورغبوا من السلطان إذنه في السفر إلى مكة، فقد كان عهدهم بَعْدَ بمثلها"⁴ فالمفهوم من هذا الكلام أنَّ هذه السفارة، قد استأنفت معها رحلة الحج، بعد أن انقطعت مدة بسبب الأحداث المذكورة كما يفيدنا هذا النص أن إعادة إحياء هذا التقليد كان مبعثه شعبي، وهو أحد مظاهر السياسة المرينية.⁵

كما اكتست هذه السفارة أهمية بالغة استنادا إلى الأهمية التي أولاها لها السلطان يوسف، وحرصا على تجهيزها بعناية، استمرت أنموذجا للركب بعده⁶، فقد عين على رأس الوفد محمد بن زغبوش من أعلام المغرب، ترافقه فرقة عسكرية مكونة من خمسمائة فارس، سَماهم ابن خلدون بأبطال زناتة⁷، كما بعث معه أموالا كثيرة لتوزيعها على سكان الحرمين الشريفين.⁸

وقد ترأس ورافق هذا الركب جماعة من رجال الصلاح والعلم، الذين أوكلت لهم مهمة جليلة ممثلة في حمل المصحف الشريف الذي أهداه السلطان المريني وأوقفه على الحرم المكي، بالإضافة إلى هدايا أخرى نفيسة، خصَّ بها سلطان مصر الملك الناصر محمد بن قلاوون وأمراء مكة والمدينة⁹، فعن البعثة الآنفة الذكر نذكر أبو عبد الله القصَّار كبير علماء المغرب¹

¹ - عبد الرحمن ابن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج 5، ص 416.

² - نفسه، ج 7، ص 266.

³ - محمد المنوني، المرجع السابق، ص 131. عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 116.

⁴ - عبد الرحمن بن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج 7، ص 266.

⁵ - محمد المنوني، المرجع السابق، ص 131.

⁶ - نفسه، الصفحة نفسها.

⁷ - عبد الرحمن بن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج 7، ص 226.

⁸ - ابن أبي الزرع، الأنيس المطرب... المصدر السابق، ص 284.

⁹ - رابح مغراوي، المرجع السابق، ص 212.



، وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم البقّوري²، وكان هذا الأخير المكلف بحمل الرّبعة القرآنية، حيث ذكر عن صاحب النفح: "... أنه قدم إلى مصر ومعه مصحف قرآن حمل بغل، بعثه ملك المغرب ليوقف بمكة..."³ فقد أفاد هذا النص على أهمية المصحف المحلى ضمن الوفد، والذي أعد لغرض السّفارة، وعكّس الحرمة والقدااسة من جهة، كما عكّس الصورة الفنية على الإخراج الراقي لهذه المصحف، الذي خصّص له السلطان يوسف بن يعقوب أحد كتاب دولته⁴ "لاستدساخ مصحف رائق الصنعة، كتبه ونمقه أحمد بن حسن الكاتب المحسن، واستوسع في جرمه، وجعل غشاه من بديع الصنعة، واستكثر فيه من مغالق الذهب المنظم بخرزات الدّر والياقوت، وجعلت منها حصاة وسط المغلق تفوق الحصيات مقداراً وشكلاً، واستكثر من الأصونة عليه، ووقفه على الحرم الشريف"⁵ وقد وقف على هذا المصحف الشريف العالم ابن مرزوق الخطيب ووصفه في كتابه المسند الصحيح الحسن بقوله: "وقد رأيت بمكة شرفها الله المصحف الذي بعث به المولى أبو يعقوب بخط ابن حسن، وكان وجهه محلى بالذهب، المنظوم بالجواهر النفيسة، فانتزع ما عليه، وبقي في قبة الشّراف، يقرأ فيه احتساباً وقد قرأت فيه في أعواماً"⁶ أما كاتب هذا المصحف حسب ما ورد في المسند الصحيح فهو أحمد بن حسن البلياني التلمساني، وهذا ما جعل اللبس يعتري المسألة كون أن السلطان يوسف بن يعقوب قد بعث بمصحفين اثنين، وهذا ما يذكره المقرئ في السلوك⁷، على أن المصحف المذكور قد بعث به سلطان المغرب سنة أربع وسبعمائة للهجرة، ولا يفصل في المسألة إلى رسالة صادرة عن يوسف بن يعقوب إلى كبير أشراف أمغار يلتبس فيها المعونة بثلاثة رجال، ليتوجهوا إلى الحجاز

1- محمد المنوني، المرجع السابق، ص 131.

2- نسبة إلى بقّور بباء موحدة مفتوحة ووقف مشددة، وهي بلد بالأندلس، سمع من القاضي الشريف أبو عبد الله محمد الأندلسي، ووضع كتاباً سماه الحمال الأكمال للقاضي عياض، وله تعليق على كتاب القرافي في الأصول، أرسل معه سلطان المغرب ختمة كبيرة بخط مغربي، ورجع إلى مراكش فتوفي بها سنة سبع وسبعين وسبعمائة، ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تر: محمد الأحمد أبو النور، ج 2، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، (د.ت)، ص 316.

3- أبو العباس أحمد المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تر: إحسان عباس، ج 1، دار صادر، بيروت، 1988، ص 353، ابن فرحون المالكي، نفسه، ص 317.

4- راجع مغراوي، المرجع السابق، ص 212.

5- عبد الرحمن بن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج 7، ص 266.

6- ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تج: ماريّا خيسوس باغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 476.

7- المقرئ، المصدر السابق، ج 2، ص 09.



مع من يتوجه، لحمل الربعة القرآنية، وكسوة بيت الله الحرام، وقد كتبت هذه الرسالة في 22 صفر عام 703هـ¹

ج- وفادة لبيدة بن أبي نعي أمير مكة على السلطان يوسف بن يعقوب:

تميزت العلاقات بين السلطان المريني أبو يعقوب يوسف وأشراف مكة المكرمة بغاية الطيبة. ولا أدل على هذا من وفادة لبيدة بن أبي نعي بن صاحب مكة مع ركب الحجيج العائد في ربيع الثاني سنة 704هـ/1304م، بعدما أقدم هذا الأخير على الخروج عن طاعة الملك الناصر محمد، حيث قام هذا السلطان المملوكي بالقبض على أخويه حميضة² ورميثة³ عقب وفاة أبيهم سنة 702هـ/1302م.

وقد استبلغ السلطان يوسف في إكرامه وضيافته، وسرحه ليجول في الرحاب والضبيعات، ويسيح بين مختلف المناطق والقصور السلطانية أنى شاء، وأوصى عمّاله باستقباله وإكرام وفادته، كما انبرى العمال للعناية بالضيف، وإتحافه بما يناسب قدره⁴. وبعد الانتهاء من هذه الزيارة، رجع شريف مكة إلى السلطان بتلمسان سنة 705هـ/1305م، ثم فصل منها إلى بلاده رفقة أحد أعلام المغرب⁵.

د- سفارة سنة 704هـ/1304م:

تعتبر السفارة سنة 704هـ/1304م، من أجلّ السفارات المرينية إلى مصر، والتي انتدب لها الأمير علاء الدين بن أيدغدي الشهرزوري⁶، وكانت الهدية عبارة عن عدد من الخيل

1- المنوني، المرجع السابق، ص 132.

2- هو حميضة بن أبي نعي محمد بن أبي سعد حسن بن علي بن قتادة بن إدريس بن مطاعي، الشريف عز الدين الحسيني المكي، أمير مكة 720هـ/1320م، خرج عن طاعة السلطان المملوكي فقتل بمكة، ينظر: ابن ثغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح: محمد أمين، ج5، دار الكتب، القاهرة، 1990، ص 186.

3- هو رميثة بن أبي نعي، أسد الدين المكي الحسيني، تولى إمارة مكة حوالي ثلاثين سنة، وقع له مع إخوته حروب حتى وفاته بمكة سنة 746هـ/1345م، ينظر نفس المصدر، ج5، ص 356.

4- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 248، محمد المنوني، المرجع السابق، ص 132.

5- عبد الرحمن بن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج7، ص 226، المنوني، المرجع السابق، ص 132.

6- كان هذا الأمير من المماليك الأكراد الشهرزورية، تم القبض عليه في عهد السلطان بيبرس البندقداري، فهرب ثم أبحر مع جماعة من المغاربة حتى وفد على السلطان أبو يعقوب فأكرمه واستطاع أن يتحدث معه في شأن الوزارة، وقد اتصف بأخلاق المغاربة لطول إقامته بينهم، انظر: المقرئ، السلوك... المصدر السابق، ج2، ص 09.



والبغال والإبل، وأصنافا من أواني المغرب وسائر طرفه من ذهب وفضة¹، فقد بلغ عدد الجياد أربعمائة من العتاق جاهزة للقتال، يناهزها في هذا العدد البغال الفارحة².
وممن سحب السفارة مع الأمير الشهرزوري العالم الفقيه أبو الحسن التنسي كبير أهل الفتيا بتلمسان،³ أما دليل هذه البعثة فكان أبو زيد الغفائي⁴ حيث انطلقت من المنصورة (تلمسان) مقر الملك شهر ربيع الأول سنة 704هـ/1304م.⁵
كما أكرم الملك الناصر وفادة هذه السفارة، وحرص على حسن استقبالها، وأنزل الوافدين الميدان، وقابل ركب الحجاج بأبلغ وجوه التكرم، وبعث معهم أميرا من خاصته لمرافقتهم في طريقهم، حتى يقضوا فرضهم ومناسكهم⁶، كما استأذنه في ذلك الأمير الشهرزوري الشهرزوري أن يحج بالمغاربة ويقضي فرضه، "... فأنعى له بذلك، وجيز أيضا صحبتته من أهله وأقاربه، وتبعهم جماعة كثيرة... ورتب لهم ما يحتاجون إليه، ورسم للوزير والمباشرين أن يجهزهم بكل ما أمكن".⁷
قد أرتح لهذه السفارة ابن الوردي بقوله: "ثم دخلت سنة أربع وسبعمائة فيها وصل من المغرب كثير، صحبتهم رسول أبي يعقوب يوسف بن يعقوب المريني ملك المغرب إلى مصر هدية عظيمة خيل وبغال نحو خمسمائة بسروج ولجم ملبسة بالذهب المصري"⁸ فهذا النص يوضح يوضح لنا جلياً مدى الرفاهية التي اتصفت بها هدايا المرينيين إلى ملوك مصر المملوكية.

1- عبد الرحمن بن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج 5، ص 40.

2- بن أبي الزرع، الأنيس... المصدر السابق، ص 285، ابن خلدون، التعريف بابن خلدون.. المصدر السابق، ص 337.

3- كان التنسي ممن تصرف في الرسالة بين ملوك المغرب والمشرق، وكان محترماً لدى السلطان أبو يعقوب يوسف، ينظر: يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح: عبد الحميد حاجيات، ج 1، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، ص 113.

4- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح: محمد سيد جاد الحق، ج 1، مطبعة المدني، المدني، القاهرة، 1966، ص 454، ابن ثغري بردي، النجوم الزاهرة... المصدر السابق، ج 8، ص 215.

5- ابن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج 7، ص 226.

6- بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح: محمد أمين، ج 4، مطبعة دار الكتب، القاهرة، القاهرة، 1987، ص 346.

7- نفسه، الصفحة نفسها.

8- ابن الوردي، تنمة المختصر، ج 2، المطبعة الحيدرية، النجف، 1969، ص 253.



وهذا ما أكدّه ابن الخطيب بوصفه: "فبعث [أبو يعقوب يوسف] إليه [الملك الناصر] هدية مشتملة على خيل عديدة، وبغال رومية، وغير ذلك من الأمتعة، زعموا أن الدواب بين فرس وبغل وجمل بلغت سبعمائة دابة".¹

هـ - السفارة المملوكية إلى بلاد المغرب 705هـ-706هـ/1305-1306م:

تعتبر هذه السفارة المملوكية مظهراً جلياً من مظاهر العلاقات المرينية المملوكية، حيث عمل الملك الناصر صاحب مصر على مكافأة السلطان المريني على هديته ابتداءً، بأن جمع من طرف وتحف بلاد المشرق وغيرها من الأصقاع ما يستغرب جنسه من الثياب والحيوانات المستظرفة كالفيل والزرافة²، وانتدب لها من خيرة الأمراء المماليك على رأسها أميران يحمل كل منهما لقب "أيدغدي" وهما أيدغدي التليي الشمسي، وأيدغدي الخوارزمي³. وسيّر معهما جملة من الأغراض وخمسة عشر تترياً من الأسرى وخمسة ممالك أترك ونحو ذلك⁴ وانطلقت هذه السفارة من القاهرة أواخر سنة 705هـ/1305م ووصلت إلى تونس الحفصية في ربيع الثاني سنة 706هـ/1306م⁵ وفي جمادى الثانية وصلت إلى المنصورة بتلمسان⁶.

رغم كلّ ما حملته هذه السفارة من الطّرف والتّحف الآنف الذّكر، إلا أنها حملت معها مفاجأة عظيمة عاد بها أبوزيد الغفائري وأبو الحسن التنسي وجها ركب الحاجّ المريني، حيث حملا معهما بيعة أشرف مكة المكرمة للسلطان يوسف، وشكواهم بصاحب مصر⁷، وبعثوا مع مع البيعة بقطعة من كسوة الكعبة، سرّ بها السلطان المريني واتخذ منها ثوباً تيمناً بمقام الكعبة المشرفة⁸.

كما عمل السلطان يوسف على المبالغة في إكرام الوافدين، واحتفل بمقدمهم أيّما احتفال، وبعثهم إلى حواضر المغرب الأقصى كفاس ومراكش للوقوف على محاسن البلاد، ومشاهدة المنجزات السلطانية، على نحو ما فعل بشريف مكة، ولعلّه كان تقليداً مرينياً من

1- ابن الخطيب، أعمال الأعلام... المصدر السابق، ج 1، ص 639.

2- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 248.

3- عبد الرحمن بن الأعرج، المرجع السابق، ص 119.

4- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 249.

5- عبد الرحمن بن خلدون، العبر... ج 5، ص 227.

6- عبد الرحمن بن الأعرج، المرجع السابق، ص 119.

7- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 248، راجع مغراوي، المرجع السابق، ص 217، المنوني، المرجع

السابق، ص 133.

8- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 248، راجع مغراوي، المرجع السابق، ص 217، المنوني، المرجع

السابق، ص 133.



قبيل حسن الضيافة، أو أنها سياسة مريئية ممنهجة لإبداء عظمة هذه السلطة للوافدين، وفي هذا الشأن يذكر لنا ابن خلدون فيقول: "... أحفل مع أميرين من أمراء دولته [الملك الناصر] أدركا يوسف بن يعقوب وهو يحاصر تلمسان، فبعثهما إلى مراكش للنزاهة في محاسنها".¹

وقد أدركت المنية السلطان يوسف بن يعقوب 706هـ/1307م، والوفد المصري بالمغرب، فأوكل الأمر إلى حفيده السلطان أبي ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف² الذي سار مع الوفد نفس سيرة سلفه، حيث أحسن منقلبهم، وجيز مسيرتهم بهدايا إلى الملك الناصر، وأوفد معهم ركبا من الحجّاج من رعيته.³ وعن هذا الموضوع يذكر ابن خلدون: "وتقبل أبو ثابت لسنته من بعده في تكريمهم، فأحسن من منقلبهم وملا حقائقهم صلة وبرا، وفصلوا من المغرب لذي الحجة سنة سبع".⁴

ويمكننا القول أنه ابتداء من عهد السلطان يوسف بن يعقوب انتظمت العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين، واستمر إيفاد رجال الدولة المرينية بانتظام لبلاد المشرق وظل الطرفان يتبادلان المخاطبات والهدايا والمكافآت.⁵

إلى أن عودة هذا الوفد المصري للأسف، لم يكن كما يرجو ويتشوق حيث عكّر صفو هذه الغبطة بين الدولتين، اعتراض طريقها من قبل أعراب القفر من بني حصين بالمغرب الأوسط.⁶ حيث نهبوا أغراضها، ولم ينجو أصحابها إلا بشق الأنفس⁷، وربما تجرأ هؤلاء الأعراب بعد ورود خبر وفاة السلطان يوسف بن يعقوب، فإنه بالعادة ما كانت ترجع أعمال الحراية كلما ضعفت قوة السلطان أو اشتدّ الصّراع بين دويلات المغرب الإسلامي.

1- عبد الرحمن بن خلدون، التعريف... المصدر السابق، ص 372.

2- هو عامر بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، ولد سنة 683هـ وبويع له بعد وفاة جده في تلمسان 706هـ، لم يحكم سوى سنة ونصف، صالح أبا زيان العبدواي، كان جريئا سفاكا للدماء قطف رؤوس المتورطين، من قاداته وأقربائه، من أهم إنجازاته البدء في مدينة تيطوان، عاجله الموت بطنجة، ينظر ردّ ابن الأحمر في شأن التنازل عن سبته وكان ذلك سنة 708هـ، ابن أبي الزرع، الأنيس...، المصدر السابق، ص 389، الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 3، تج: محمد وجعفر الناصري، دار الكتب، الدار البيضاء، 1954، ص 91.

3- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 5، ص 421.

4- راجع مغراوي نقلا عن العبر، المرجع السابق، ص 219.

5- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 249.

6- هم أعراب القفر من بني حسن أو بني حصين بالمغرب الأوسط حسب اختلاف الروايات ينظر: راجع مغراوي، المرجع السابق، ص 219.

7- راجع مغراوي، المرجع السابق، ص 219.



وقد احتج السلطان المملوكي كثيرا عن هذه الحوادث، وبعث برسالة عتاب لبني زيان يعاتبهم فيها على عدم تأمين المسالك في المغرب الأوسط.¹ (وهذه من المفارقات التي وقفت عليها، كون الممالك يدركون الضعف الذي طال بني عبد الواد، وحصار بني مرين لهم، ثم معاتبهم عقب هذا الصنيع) ومنذ هذه الحادثة، لم يعاود سلاطين الممالك إرسال السفارات إلى بلاد المغرب، رغم سعي المغاربة من بني زيان وبني مرين تهدئة جو التوتر الحاصل في العلاقات بعد الحادثة المذكورة، التي أرّخ لها ابن خلدون ولطبيعة الموقف بقوله: "...ولم يعاودوا بعدها سفيرا... وظالما أوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يؤيدوا به، يهادنونهم ويكافئون ولا يزيدون في ذلك كله عن الخطاب شيئا"² وبقي هذا العزوف المملوكي عن وصل بني مرين وإرسال السفارات إلى غاية دخول المرينيين إلى تلمسان سنة 737هـ/1337م.³

3. العلاقات في عهد السلطان أبي الحسن المريني:

يعد عهد السلطان أبو الحسن المريني⁴ العصر الذهبي للعلاقات المرينية المملوكية، إذ ناهزت عدد السفارات تسع سفارات مع معاصري هذا السلطان، ابتداء من عهد الملك الناصر محمد بن قلوون ثم في عهد خلفه، الملك الصالح أبو فدا إسماعيل ثم أخوه الملك الناصر حسن⁵، حسن⁵، حيث عمل الطرفان على تجديد عهد المودة والصداقة، بعدما أجاب السلطان أبو الحسن المريني مبادرة الملك الناصر محمد في بعث العلاقات الطيبة بين الدولتين، نظرا لارتفاع العوائق عن ركب الحج، وبعدما استتب الأمر للسلطان المريني بإخضاع تلمسان وبجاية سنة 737هـ/1337م.⁶

وقد انتدب الملك الناصر للمبادرة الوزير أبو عبد الله محمد بن الجراح، بينما أجابه السلطان أبي الحسن عن طريق بعثة مغربية ترأسها أبو زيان فارس بن ميمون بن ودرار، الذي

1- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 120.

2- عبد الرحمن بن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج 7، ص 470-471.

3- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 121.

4 - هو السلطان أبو الحسن بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، من أعظم ملوك بني مرين، ويعدّ عهده من أزهى عصورهم، كما عرف عهده توسعا كبيرا على حساب دول المغرب الإسلامي، تنازل عن العرش لابنه أبوعنان مكرها بعدما أقدم هذا الأخير على خلعته وهو في حملته على تونس سنة 748هـ. ينظر السلاوي، المرجع السابق، ج 3، ص 118 وما بعدها.

5- نفسه، الصفحة نفسها.

6- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 251.



حمل رسالة تسفر عن مشاعر الودّ والصداقة لملك مصر والشام والحجاز.¹ أما عن صفة وأغراض هذه السفارات فمنها ما كان بغرض الدبلوماسية الصرفة، ومنها ما كان برفقة ركب الحاجّ، وهذا تنوع ينمّ عن متانة العلاقات والطيبة بين الدولتين.²

أ. السفارة المرينية إلى القاهرة عام 736هـ/1336م:

تعدّ هذه السفارة الأولى في عهد السلطان أبو الحسن، وسبب مبعثها- كما ذكرنا- وهو استتباب الأمور، وإخضاع المغرب الأوسط من قبل المرينيين وتأمين طريق الحجّ، حيث يذكر لنا ابن خلدون عن هذه الظروف السياسية ما مفاده: "ولما قضى من أمر تلمسان ما قضى [أبو الحسن]، وتغلب على المغرب الأوسط، وصار أهل النواحي تحت وبقة منه، واستطاح بجناح سلطانه، خاطب صاحب مصر والشام محمد بن قلاوون الملك الناصر، وعرفه بالفتح، وارتفاع العوائق عن الحاج في سابلتهم".³ كما أكد على هذه الرسالة الأديب المؤرخ القلقشندي.⁴ ولم يحدد لنا ابن الخطيب التاريخ الدقيق لبدء وبعث هذه العلاقات حيث يقول: "واتصلت بين الملك الناصر وبين السلطان أمير المسلمين بالمغرب الجليل القدر، الشهير الذكر، أبي الأملّك من بني مرين، وقدوة الملوك المجاهدين الصالحين، أبو الحسن نصر الله وجهه، وتوجهت إليه من بابه الكريم، الهدية الشهيرة. على أثر تملكه مدينة تلمسان عنوة حسبما يذكر، إذا أعان الله بالانتهاء إلى محل ذلك".⁵

بالإضافة إلى ما ذكرناه من الظروف السياسية التي أدت إلى بعث العلاقات بين المغرب والمشرق، هناك أيضا ظروف ذاتية متعلقة بالطرف المريني، إذ كانت من غايات هذه السفارة ما عزمتم عليه والده السلطان أبو الحسن من حجّ بيت الله الحرام وزيارته قبر المصطفى عليه

1- نفسه، الصفحة نفسها.

2- المنوني، المرجع السابق، ص 137.

3- رابح مغراوي، المرجع السابق، ص 223.

4- هو القاضي شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي، ولد بإحدى قرى منطقة قليوب المصرية سنة 756هـ بلغ في علوم اللغة والبلاغة والإنشاء، وعمل في ديوان هذا الأخير سنة 791هـ في عهد السلطان الظاهر برفوق، توفي 821هـ، ينظر: أبو عمر محمد، نبذة عن كتاب صبح الأعشى للقلقشندي من موقع: www.ajury.com

5- رابح مغراوي، المرجع السابق، ص 223.



الصلاة والسلام والمسجد الأقصى، وهي المساجد التي تشد إليها الرحال في الإسلام.¹ حيث أعرب الملك الناصر عن ابتهاجه وشرفه في خدمة الأميرة عنبر...² كما حملت الرسالة الأخبار والتحركات العسكرية المرينية في المغرب الأوسط والأدنى وانتصاراتهم على نصارى الأندلس³، حيث وصف هذه المواطن بـ "معدن الفسوق وموطن العقوق ومقطن إضاعة الحقوق".⁴

ويمكننا القول أنه من خلال الوقوف على نص الرسالة وفحواها وما رأينا من نقل أخبار بلاد المغرب الإسلامي إلى الملك الناصر، نستشف مدى الإجلال والاحترام الذي كان يكنّه السلطان أبو الحسن للملك الناصر، خاصة إذا تأملنا افتتاحية الرسالة المرينية، فالألقاب والنوعت التي خاطب بها السلطان المريني نظيره المملوكي تدل دلالة واضحة على أن الدولة المرينية اعترفت برسم الخلافة العباسية بالقاهرة⁵: "... من عبد الله أمير المسلمين وناصر الدين الدين المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين وسلطان العدوتين أبي الحسن إلى السلطان... هازم جيوش الأرمن والفرنج والكرج والتتر... خديم الحرمين ناصر الإسلام... ظهير الخلافة وعضدها.. ولي أمير المؤمنين أبي المحلي محمد..."⁶

كما يعرض لنا نص الرسالة طبيعة العلاقات الزينانية المرينية، والتي دلّت أن العداوة أقدم من قيام هذين الدولتين، متوارث خلفا عن سلف، وأزخت كذلك لحصار تلمسان. "... وذلك أن أسلافه بني زيان [يعني السلطان الزياني] كانوا قد استولوا على هذه المملكة في سالف الزمان، ولم يزل بينهم وبين أسلافي المحتوين على ملك المغرب الأقصى وقائع، تورد الحمام، وتذيقهم الموت الزؤام، فيدعون للمنازعة ويعودون للموادعة".⁷ ثم يضيف قائلا: "ثم لم يلبثوا أن ينكثوا، ولم يصبروا أن يغدروا، إلى أن كان من حصار عمنا... أبي يعقوب... إياهم، فأكثر

1- المنوني، المرجع السابق، ص 137، عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 121.

2- جاء في المسند الصحيح لابن مرزوق، أنها كانت سيدة ذات أخلاق فاضلة، تشفق على اليتامى وتبذل الصدقات، توفيت قبل بلوغ بيت الله الحرام بين سنتي 736هـ و737هـ/1336-1337م. ينظر: عبد الرحمن بالأعرج، نفسه، الصفحة نفسها.

3- المنوني، المرجع السابق، ص 137.

4- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 251.

5- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 122.

6- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج8، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1985، ص 88.

7- نفسه، ج8، ص 90.



موتهم وكدر محياهم، وتمادى بهم الحصار سبع سنين، وما كانوا غير شرذمة قليلين¹ ثم تكلمت الرسالة استعانة النصريين بأبي الحسن ضد النصاري فأجابهم إلى مرادهم وفي هذا الموضوع يذكر "وفي أثناء ذلكم، وصل إلينا أيضا سلطان الأندلس مستغيثا على النصاري أعداء الله... فجهزنا معه ولدنا عبد الواحد إلى أربعة ألف من الأبطال... وأذاقت من جدهم من أهماج الأعلاج شرا وحصرنا، إلى أن أسلموه للمسلمين قهرا وقسرا، ومنح الله مزيد المؤمنين فتحا ونصرا"².

ثم عرجت الرسالة من أحداث سجلماسة، وتحرك أبي الحسن إلى أخيه المتمرّد فيها بدعم من السلطان العبدوادي أبو تاشفين عبد الرحمن حيث جاء فيها "وكنّا في هذه المدة التي جرت بها هذه الأحوال، وعدت فيها هذه الأهواء والأهوال، منازلين أخانا الممتنع بسجلماسة من بعض بلاد القبلة، محاولين إزاحة ضره، وإراحة من شره، ما فيه الصلاح والفلاح، على التفصيل والجملة، لعثايته في الفساد، ودعايته إلى العناد، ومعاضدته صاحب تلمسان، ومساعدته على البغي والعدوان، فسهل الله افتتاحها، وعجّل من ضائعته الجميلة منها مباحها، وذلك بعد تسليم جبل الفتح بثلاثة أشهر ونصف، ويسّر الله تعالى من ذلك من بدائع الصنائع، ما يقصر عنه كل نعت ووصف"³.

ومن هنا نرى في مستعرض هذه الرسالة تفاصيل على أحداث كثيرة وقعت ببلاد المغرب الإسلامي كدخول تلمسان والطريقة الدموية التي تم بها، بالإضافة إلى الإطراء الذي اختص به الحسن بعد منحه الأمان لكل من استسلم له من بني عبد الواد، كما أطلعنا بالكيفية التي قتل بها السلطان العبدوادي أبو تاشفين عبد الرحمن الأول: "وتمكنت يد القهر من نواصمهم، وحقت عليهم كلمة العذاب من معاصمهم، وفرّ الشقي إلى فناء داره، في نفر من ذويه وأنصاره، وفيهم ولداه مسعود وعثمان ووزيره موسى معينه على البغي والعصيان، وعبد الحق بن عثمان الخائن الغادر، وابن أخيه العامل بعمله ثابت بن عامر، فتكنفهم هنالك أولياء دولتنا العلية فأوردوهم ويوسف ولد الشقي السالب حياض المنية، ونبذت بالعراء أجسامهم"⁴.

إن ما يمكن ملاحظته عن فحوى الرسالة، أنها تضمنت تفاصيل الأحداث التي وقعت ببلاد المغرب الإسلامي، تفصيلا أتى على أدق العوارض التي حدثت بين المرينيين وخصومهم في هذه البلاد، في شكل تقرير مرفوع من السلطان أبي الحسن المريني إلى السلطان المملوكي محمد

1- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 124.

2- القلقشندي، المصدر السابق، ج 8، ص 91.

3- نفسه، ج 8، ص ص 92-93.

4- نفسه، ص 96.



الناصر بن قلاوون، ومما يلفت الانتباه هو الأسباب الخفية التي دفعت بالسلطان المريني إلى اطلاع نظيره المملوكي بهذه الوقائع والتفاصيل، فهل هي مسندة إلى خدمة هذا الأخير للحرمين الشريفين - كما تقدم -، أم هي منطلقة من اعتراف السلطة المرينية بالخلافة العباسية بالقاهرة، أم أنها كانت طبيعية جاءت كنتيجة للعلاقات الودية والأخوية المتينة التي ربطت الدولتين.

وقد ردّ الملك الناصر على رسالة أبي الحسن برسالة جاء في مستهلها تقديم التعزية للسلطان في والدته، وأكدّ له احتفاء دولته بكل شيء يرد إليها من جهة المغرب المريني، كما أكدّ له مدى رعايته للحرمين الشريفين، علقت الرسالة على انتصارات جيوش بني مرين في الأندلس وما فتحه الله على يد سلطان للمغرب في هذه البلاد، حيث يعد هذا من قبيل إعزاز دين الله عز وجل، ولم يفت الرسالة التنويه إلى التقليد الجاري في نقل سلاطين المرينيين أخبار المغرب إلى السلطة المملوكية، والذي يعتبر تقليدا دأب عليه أسلاف أبي الحسن¹ كما أفادت الرسالة كذلك خبر غزو المماليك لأرمينيا²

ب. رسالتان من الملك الناصر إلى أبي الحسن المريني مع وفد الحج:

لم تسفر لنا المصادر عن نصّ الرسالتين التي كلّف بها الملك الناصر الوفد العائد من رحلة الحج، حيث حملت رسالة أخرى اسم الشيخين أبو عبد الله بن صالح، والشيخ محمد بن لمعان، وكان موضوعهما يدور على الأرجح حول إعادة بعث العلاقات بين المغرب والمشرق، فقد ورد في الرسالة المذكورة ما يلي: "فأما ما ذكره [أبو الحسن] هي ورود الكتائبين الواصلين إلى حضرته، صحبة الشيخين الأجلين محمد بن عبد الله بن صالح والحاج محمد بن لمعان وأنه أمضى حكمهما وأجرى رسمهما، فقد أثرنا للأجر حوزة، واختبرنا بالشكر فوزه، وقصدنا بهما تجديد جلباب الوداد، وتأكيد أسباب الولاء على البعاد، وإلا فمع وجود إنصافه، والحقوق من غاصبها تستعاد، والوقوف بنصره للمظلوم وقهره للظالم لا يختلف فيه اعتقاد، وقد شكرنا لكم ذلكم الاحتفال، وأثرنا حمدكم في المحافل والمجال"³.

ج. سفارة عام 738هـ/1338م:

وفي رمضان سنة 738هـ/1338م وفد ركب الحجّ الذي جهزه السلطان أبو الحسن على ملك مصر والشام محمد الناصر⁴، فقد انتشرت أصداء هذا الركب نظرا لما اصطحبه معه من

1- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 128.

2- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 252.

3- المنوني، المرجع السابق، ص 182.

4- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 252.



رموز الدولة وسادتها، ونخبة المرينيين وصفوتها، وخواص الإيالة الحسينية وكبارؤها من عريف ووزعه وكاتب وصاحب الباب وغيرهم¹، دلّ على ذلك قول ابن خلدون: "أوفد على الملك الناصر محمد ابن قلاوون صاحب مصر وشام، من خواص مجلسه وكبار أهل دولته، عريف ابن يحي أمير زغبه، وسابق في القدم على كل خالصة وعطية ابن مهلهل بن يحي كبير خولة، وبعث كاتبه أبا الفضل بن محمد بن أبي مرين، وعريف الوزعة بدولته وصاحب الباب عيو بن قاسم المزوار"². ولم تقتصر البعثة على ما ذكر في النص وإنما اصطحب معها الأميرة مريم حضية القصر المريني، التي تعتبر أحد زوجات والد السلطان، وتقوم مقام والدته، وفي هذا يضيف ابن خلدون قوله: "ولما ملك السلطان أبو الحسن تلمسان اقترحت عليه جارية أبيه أبو سعيد، وكانت لها عليه تربية، فأرادت الحجّ في أيامه وبعنايته فأذن لها في ذلك، وبعث في خدمتها وليه عريف بن يحي من أمراء سويد"³.

كما أن السلطان نحا نحو سالفه أبو يعقوب يوسف في تحبّيس المصحف على الحرم النبوي، غير أنه تميّز عنه بأن نسخة بخط يده، وجمع الوراقين لتنميقة وتهذيبه، وأحضر القراء لضبطه وتهذيبه، وضع له من الأنبوس والعاج والصندل بفائق الصنعة، وغشي بصفائح الذهب ورسغ بالجواهر والياقوت، واتخذت له أصونة الجلد المرقوم المحكّمة، زيتها بخطوط الذهب، ومن فوقها أغلفة الحرير والديباج، وأغشية الكتاب، وقد أخرج من خزائنه الأموال التي عينها لشراء ضياع بالمشرق تكون وقفا على قراء الرّبعة القرآنية الشريفة⁴.

أما فيما يخصّ صفة الهدايا العينية التي بعث بها السلطان أبو الحسن، فإنها كانت فارهة للغاية، حيث يذكر ابن خلدون نصين أتى على لوازم الهدية فيقول: "وذكر لي بعض قهارمة الدار أنه كان فيها، خمسمائة من عتاق الخيل بسروج الذهب والفضة ولجمها، خالصا ومغشى ومموه، وخمسمائة حمل من متاع المغرب وماعونه وأسلحته، ومن نسخ الحرير الفائق المعلّم بالذهب ملونا وغير ملون، وساذجا منمقا، ومن البرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكّمة بالدباغ المتعارف، وتنسب إلى اللمط، ومن خرثي المغرب وماعونه ما يستظرف بالمشرق، حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجواهر والياقوت"⁵ أما في كتابة التعريف والرحلة فوصفه غير بعيد عما ذكر فيقول: "واصطحبوا هدية منه [أبو الحسن] للملك الناصر احتفل

1- راجع مغراوي، المرجع السابق، ص 226، المنوني، المرجع السابق، ص 143.

2- المنوني، نفسه، ص 143.

3- عبد الرحمن بن خلدون، التعريف... المصدر السابق، ص 373.

4- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 252.

5- راجع مغراوي، المرجع السابق، ص 227.



فيها ما شاء، وانتقى من الخيل العتاق والمطايا الغره وقماش الحرير والكتان، والصوف، ومديوغ الجلود الناعمة، والأواني المتخذة من النحاس والفخار المخصوص، كل مصر من المغرب بأصناف صنائعها، متشابهة الأشكال والأنواع، حتى لقد زعموا أنه كان فيها مكيل من الآلي والفصوص، وكان ذلك وقر خمسمائة بعير، وكانت عتاق الخيل فيها خمسمائة فرس بالسروج الذهبية المرصعة بالجواهر واللّجم المذهبة، والسّيوف المحلاة بالذهب والآلي¹.

وفيما يخص مقدار الهدية النقدية التي صاحبت السفارة، فقد بلغت عشرة آلاف دينار حسب ابن خلدون² يزيد عنه قيمتها ما ذكره المقرئ في السلوك بأنها بلغت مائة ألف دينار مصري³.

وقد خلّفت هذه السفارة أصداء واسعة بالمشرق ولدى الجهة المصرية على وجه الخصوص، حيث احتفل بها الملك الناصر أيّما احتفال وتحدث الناس بهذه الهدايا⁴ دهرا على حسب تعبير ابن خلدون، وربما استطاع السلطان المريني تجهيز هذا كله بعدما دان له المغربين.

وعلاوة على ما ذكر من أبهة هذه السفارة – التي بلغ فيها الإنفاق الترف ما عجب منه أهل المشرق – فإن السلطان أبي الحسن بعث رسالة نصيّة توصي بالحجيج المغاربة⁵ مع الرغبة في إيصال الرّبعة القرآنية للمسجد النبوي الشريف.

وقد أجاب الملك الناصر نظيره السلطان أبو الحسن ما يشهد بنجاح المهمة السّفارية المغربية وما يكافي هداياه المستلغة "ولما فصل أرسل ملك للمغرب، وقد قضوا فرضهم، بعث الملك النّاصر معهم هدية لقاء هديتهم وكانت أصنافها حمل قماش من ثياب الحرير والقماش المصنوعة بالإسكندرية... وعشرة من عتاق الخيل بالمراكب الذهبية الثقيلة ولجمها كذلك... وعابنت يومئذ أصناف تلك الهدية"⁶ إضافة إلى أحجار الياقوت مائتان وخمسة وعشرين، ومن قصب الزمرد مائة وثمانية وعشرين، وثلاثة آلاف من حبوب الجواهر الفاخر، و عشرة من

1- عبد الرحمن بن خلدون، التعريف... المصدر السابق، ص 373.

2- راجع مغراوي، المرجع السابق، ص 228.

3- المقرئ، السلوك... المصدر السابق، ج 2، ص 44.

4- عبد الرحمن بن خلدون، التعريف... المصدر السابق، ص 373.

5- المقرئ، السلوك... المصدر السابق، ج 2، ص 447.

6- ابن خلدون، التعريف... المصدر السابق، ص 374.



السّيوف المحلّاة بالذهب المنظوم بالجواهر، وسروج مخرزة بالفضّة، وحلل كثيرة وعشر وقايات مذهبة وغيرها من التحف ما جعلت أبو الحسن يحتفل بها الأيام العديدة.¹

وعلاوة على ما ذكر من أصناف التّحف والطرف المشرقية، هدية أثارت إعجاب واستغراب السّلطان أبو الحسن وهي الخيمة العملاقة المصنوعة في بلاد الشام على منوال القصور السلطانية الفخمة، ذات المرافق الملوكية المتعددة، إذ يصف ابن خلدون هذه الخيمة بقوله: "وخيمة من خيام السلطان المصنوعة بالشام، على مثال القصور، تشتمل على بيوت للمراقد وأواوين للجلوس والطبخ وأبراج الإشراف على الطرقات وأبراج أحدها لجلوس السلطان للعرض وفيها تمثال مسجد بمحرابه وعمده، ومثنته حوائطها كلها من خرق الكتان الموصولة بحبك الخياطة، مفصلة على الأشكال، التي يقترحها المتخذون لها، وكان فيها خيمة أخرى مستديرة الشكل عالية السّمك مخروطية الرأس رحبة الفناء تظل خمسمائة فارس أو أكثر".²

وقد ضربت هذين القبتين بالصفصيف، وحلّ فيها جميع الهدايا، وصفّت فيها جميع الدواب بجهازها أمام القبتين.³

وقوفا على ما ذكرناه من الهدية المملوكية السّالفة الذّكر، فإن الملك الناصر كان يرد على الرسائل المرينية، ويستخدم في مخاطبة السلطان أبي الحسن الألقاب السلطانية التي كانت تفيض مودة وأخوة واحترام متبادل، ومهما تضمنته الرسالة التي أصحبت الركب المغربي العائد من الحج، كما دعت السّلطان أبو الحسن لحج بيت الله الحرام، وزيارته البقاع المقدسة⁴ ثم أردف السلطان المغربي أبو الحسن سفارتين سنتي 739هـ/1339م و740هـ/1340م وهما الأخيرتين اللذين استقبلهما السلطان المذكور محمد الناصر بن قلاوون قبل وفاته 741هـ/1341م بعدما جلس على عرش المماليك مدة طويلة وعاصر خمسة من سلاطين بني مرين، غير أن وفاته أدّت إلى انقطاع العلاقات ردحا من الزمن نتيجة للفتن الداخلية، والاضطرابات التي أدّت إلى فقدان الأمن عبر المسالك والطرق، والتي عادت ما كانت تسلكها هذه السفارات ووفود الحجيج، بدليل ما ساقه إلينا ابن خلدون بقوله: "واتصلت بينه [أبو الحسن] وبين الملك الناصر إلى أن هلك سنة إحدى وأربعين".⁵

1- المنوني، المرجع السابق، ص 150-154.

2- ابن خلدون، التعريف... المصدر السابق، ص 374.

3- المنوني، المرجع السابق، ص 150، السلاوي، الاستقصا... المرجع السابق، ج 3، ص 130.

4- المنوني، نفسه، ص 155.

5- راجع مغراوي، المرجع السابق، ص 230.



وعليه فقد علّقت السفارات ووفود الحج المرينية إلى البقاع المقدسة، إلى غاية استتباب الأمن، واستقرار الأمر لنجل الملك الناصر الملك الصالح أبو الفداء إسماعيل، الذي جلس على العرش المملوكي سنة 743هـ/1343م، لتستأنف المراسلات والعلاقات بين الدولتين من جديد بعد سنتين من توليته.¹

د- سفارة سنة 745هـ/1345م:

بعد فتور العلاقات المغربية الشرقية، حيث كان لوفاة الملك الناصر الأثر البالغ في انقطاعها - كما أسلفنا - فبانتفاء العوائق العارضة، التي حالت دون الروابط السلطانية، أعيد بعث هذه العلاقات في عهد خلفه الملك الصالح إسماعيل² وذلك ابتداء من سنة 745هـ/1345م حيث بادر السلطان أبو الحسن المريني ببعث وانتداب كاتبه أبو الفضل بن أبي مدين³ في إيصال رسالة للسلطان المملوكي، افتتحها بتعزيته في والده الملك الناصر، وأعقبها بتهنئته على توليه الديار المصرية والشامية والتوصية بركب الحج المريني كما جرت عليه العادة مع أسلاف الملك الصالح.⁴

كما أن الرسالة قد أسهبت في الحديث حول الأحداث الخطيرة التي جدّت بالأندلس بين ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة وبين السلطان أبي الحسن⁵. وذكر الأسباب القاهرة التي أدت إلى تسليم الجزيرة الخضراء، وحياسة جبل طارق⁶، كما استوصت الرسالة بالمبعوث المريني المريني أبو عبد الله بن أبي مدين لدى الملك الصالح، والذي عهد إليه بتفقد الأوقاف المغربية المحتجسة في الحرمين الشريفين.⁷

وقد أجاب الملك الصالح على كتاب السلطان أبو الحسن برسالة أخرى بتاريخ ست رمضان 745هـ/أحد عشر يناير 1345م يشكره على مواساته بفقد والده، مبدياً له ارتياحه من

¹ - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 129.

² - الملك الصالح عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن قلاوون، تولى الأمر بعد والده الملك الناصر، كان محباً للعلم والعلماء، وله إنجازات مشهورة في باب تحسين المدارس، ابن تغري بردي، المنهل الصافي... المصدر السابق، ج 2، ص 225-227.

³ - هو أبو الفضل محمد بن أبي عبد الله محمد بن أبي مدين العثماني الفقيه الكاتب الشاعر، سماه ابن خلدون صاحب ديوان الخراج وكاتب الجباية والعساكر، كان شاعراً أدبياً وطالبا ليبيا، وكاتباً مصيباً، ذو سمة وظرف وشكل وسيم، المنوني، المرجع السابق، ص 157.

⁴ - عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 255، عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 130.

⁵ - عبد الهادي التازي، نفسه، ص 255.

⁶ - المنوني، المرجع السابق، ص 163.

⁷ - عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 255.



وراثته لأخوة السلطان المريني من والده الملك الناصر، فالوفاء لعهد المودة هو من قبيل الوفاء للوالد.¹

كما طمأنت الرسالة السلطان المريني على المهمة التي كلف بها السفير أبو المجد في الوقوف على الأوقاف المرينية بالحرمين الشريفين، ثم تبدي الرسالة على لسان السلطان المملوكي الأسف على سقوط الجزيرة الخضراء والنكبة التي حلت بالأسطول المريني، وبالمقابل فإنه أبدى له اغتباطه وفرحته لاسترجاع جبل طارق²، وقد قام الشيخ صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي الشافعي بتحرير نص الرسالة على لسان ومراد الملك الصالح المملوكي.³

هـ- سفارة عام 747هـ/1347م:

تعتبر هذه السفارة آخر سفارة سجلت على عهد السلطان المريني أبو الحسن قبل وفاته، مع ما وقع فيها من لبس في الجزم بتاريخها المحدد، حيث تأرجحت الأقوال بين سنوات 746هـ/1346م أو 747هـ/1347م⁴، ومن المؤرخين من يجعلها سنة 749هـ/1349م أي أنها أرسلت خلال دخول أبو الحسن المريني إلى تونس شهر ربيع الأول 749هـ/1349م.⁵ أما عن موضوع السفارة، فهو طلب مريني من السلطان المملوكي الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون، ممثلا في القبض على الشيخ محمد بن تافراجين التينملي الذي كان من حجاب السلطان الحفصي أبو بكر بن أبي زكرياء بعدما فر إلى مصر، غير أن السلطان المملوكي لم يجب طلب السلطان أبو الحسن لاستجارة المذكور ببعض الأمراء المماليك، وانصرافه لأداء فريضة الحج.⁶

كما اصطحب الركب المصحف الثالث على شاكلة المصحفين المذكورين اللذين أوقفا على الحرمين، حيث خصّ هذا المصحف، لثالث الحرمين الشريفين أي أوقف على بيت المقدس⁷ ومنهم من ذكر مصحف رابعا خصص للمقام الخليلي.⁸ وقد أفاد المقرئ في النسخ بأنه بأنه وقف على هذا المصحف إلى غاية القرن الحادي عشر.⁹

¹ - المنوني، المرجع السابق، ص 163.

² - نفسه، ص 164، عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 258.

³ - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 130.

⁴ - المنوني، المرجع السابق، ص 167.

⁵ - الناصري السلاوي، المرجع السابق، ج 2، ص 79، عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 130.

⁶ - عبد الرحمن بالأعرج، نفسه، الصفحة نفسها.

⁷ - المنوني، المرجع السابق، ص 167.

⁸ - عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 255.

⁹ - المقرئ، نفع الطيب... المصدر السابق، ج 2، ص 547.



وكما جرى عليه العمل والتقليد من قبل السلاطين المرينيين وعلى رأسهم أبو الحسن، فإن هذه السفارة لم تشذ عن سابقتها من الاستكثار في إكرام صاحب مصر من الهدايا فهذا ابن خلدون يطلعنا على جانب منها حيث بلغت: "... خمسمائة من عتاق الخيل المقربات بسروج الذهب والفضة ولجمها خالصا ومغشى، وخمسمائة من متاع المغرب وماعونه وأسلحته ومن نسيج الصّوف المحكم ثيابا وأكسية وبرانس وعمائم وأزرا معلمة وغير معلمة..."¹ وبطبيعة الحال فقد أكرم السلطان المملوكي الوفد المغربي، وذلل طريقه إلى مكة بأنواع البرّ والمكرمة، وأسنى لهم هدية كريمة من ثياب الإسكندرية بديعة النسيج، المرموقة بالذهب، وأرجعهم إلى مرسلهم، بعد أن استبلغ في إكرامهم وصلتهم.² وبعد إخضاع أبي الحسن تونس لسلطانه، عزم في نسخ مصحف آخر ليوقفه على الأقصى المبارك، فلم يقدر على إتمامه بسبب منيته. وبذلك فلم تتحقق سفارة كانت ستوصل مع هذا المصحف الجليل - على عادة سلاطين بني مرين -

ومع هذا فقد وُضعت لاحقا الأجزاء الخمسة والعشرين من هذا المصحف - الذي خطه أيضا بخط يده - أوائل عام 753هـ/1353م³ وبموت أبي الحسن المريني تُطوى صفحة مشرقة جدا في العلاقات المغربية الشرقية، والتي بلغت الذروة في عهد هذا السلطان المريني.

4. علاقة السلطان أبو عنان فارس المريني بالمماليك:

انتهج السلطان أبو عنان فارس نهج أسلافه إزاء العلاقات بين بني مرين والمماليك، وحافظ على جو الأخوة وربط العلاقات الحسنة مع سلاطين المشرق، بعد أن صار له الأمر سنة 749هـ/1348م.

فقد وجه السلطان أبو عنان القاضي أبو القاسم محمد الغساني البرجي الغرناطي⁴ على رأس سفارة مرينية أيام السلطان أبو المحاسن الناصر حسن بن الملك الناصر، وكان الغرض من هذه البعثة هو إيصال رسالة شعرية ونثرية إلى الروضة النبوة جاء في مستعرضها أن

¹ - عبد الرحمن ابن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج 7، ص 265.

² - المنوني، المرجع السابق، ص 172.

³ - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 130.

⁴ - المنوني، المرجع السابق، ص 218-219.



أسباب الجهاد القاهرة هي التي حالت دون وصول السلطان إلى الأراضي المقدسية لتأدية مناسك الحج.¹

كما أن أبو عنان قد أوقف في الحرم المقدسي أربعة قرآنية، وعين لقراءتها ثمانية عشر نفساً، خمسة عشر منهم من حفاظ كتاب الله، واشترط أن يكونوا من المغاربة المالكين، وخادمين و جاب، وأجرى عليهم من الأعطيات سبعة عشر سهماً لكل النفر، عدا سهم واحد يقتسمه كل القادمين.²

يضاف لجملة الأوقاف المذكورة من السلطان أبو عنان وأسلافه من سلاطين بني مرين وقف حمام كامل البناء بمدينة الرملة وعمارة حانوتين وبئر ماء وبساتين بجوار هذا الأخير، وانتدب لهذا كله وكيلًا، وأشهد على عقد هذا الوقف.³

ومن مظاهر التواصل بين المغرب والمشرق أيام السلطان أبو عنان فارس ما ورد عن وصول غراب (أي سفينة) رست بسبنة قادمة من الإسكندرية محملة بما اقتناه من بضاعة الشرق وطرفه⁴، وربما هذا الأمر يدلنا على العلاقات الاقتصادية بين المغرب والمشرق، فإن الدليل يعوزنا في كون هذه البعثة كانت رسمية.

5. العلاقات في عهد السلطان أبو فارس عبد العزيز الأول:

قد نهج السلطان أبو فارس عبد العزيز الأول 767-774هـ/1367-1374م، نهج أسلافه، بعد اعتلائه سدة العرش المريني خلفاً لأخيه أبو عنان فارس، فكان على اتصال مع دولة المماليك، خاصة مع معاصره السلطان الأشرف شعبان بن الناصر حسن 764-778هـ/1363-1377م.⁵

ونلاحظ من خلال سياسة سلاطين بني مرين اتجاه المشرق، أن كل بادرة حسنة، كان يتبع فيها الخلف السلف، وجعلها سنة حميدة تُتبع لدى كل صاحب شأن في البلاط المريني، بدليل ما قام به السلطان أبو فارس عبد العزيز في بعث رسالة منظومة إلى الروضة النبوية بطيبة، على شاكلة رسالة أبو عنان، تحدّث عنها ابن حجلة بقوله: "فقد وقف المملوك... على

1- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 258، بالأعرج، المرجع السابق، ص 131.

2- المنوني، المرجع السابق، ص 174.

3- المنوني، نفسه، ص 175.

4- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 258.

5- ابن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج 5، ص ص 453-465.



الرّسالة الملكية السّلطانية الفارسية العزّيزية، المجهزة إلى الحضرة النّبوية، المفتتحة بالأبيات الدّالية... فقد بلغ برسالته التي قرأت بحضرة الرسول، وهبّت عليها نسمة القبول".¹

كما أورد القلقشندي مقتطفا من رسالة في شكل جواب من السّultan المملوكي الأشرف شعبان، دون أن يطلعنا على محتواها وهذا له دلالة قاطعة على التواصل المتين والودّي الذي جمع الدولتين²، وبالرغم من سكوت المصدر عن الموضوع الذي حملته على بعث الرّسالة، فربّما تكون تلك المكاتبة التي رفعها المماليك إلى السّultan المريني أبو فارس، جاءت قصد إعانتهم على القبارصة الذين شنّوا هجومهم على الإسكندرية عام 767هـ/1366م.³

فالمصادر المصرية تكشف لنا وجود شخصية من المغرب الأقصى، وهي شخصية الرئيس إبراهيم التازي⁴ الذي استقبله السّultan الأشرف شعبان، وكلفه برئاسة دار الصّناعة وبفتح قبرص، بعد أن أبحر من الإسكندرية سنة 769هـ/1368م، في قاربين فقط، دون اللّجوء إلى مقترح السّultan في إمداده بمائة قارب⁵، وهكذا فقد عاد ابتداء إلى ميناء الإسكندرية يوم تسع شعبان بزورق كبير غنمه الرئيس إبراهيم، واحتفظ بمن فيه من القراصنة المسيحيين في الزورقين اللذين صحباه في فتحه، وكان لهذه الواقعة الأثر البالغ لسكان الإسكندرية، حيث ارتجّت هذه المدينة فرحا بهذا التّصّر العظيم.⁶

وقد وردت رسالة تهنئة على السّultan المملوكي من قبل السّultan المريني أبو فارس نتيجة لهذه الواقعة المشرّفة، ويهنئه برفع الضّيم عن الأراضي المصرية.⁷

6. العلاقات في عهد السّultan أبو العباس أحمد وابنه أبو عامر:

انبرى السّultan أبو العباس أحمد بن أبي سالم للشأن المريني بين 775-786هـ/1373-1384م ثم 789-796هـ/1387-1399م بينما اعتلى الأخير العرش وهو أبو عامر بن أبي العباس بين سنتي 799-800هـ/1397-1398م.

1- المنوني، المرجع السابق، ص 184.

2- القلقشندي، المصدر السابق، ج 7، ص ص 415-416.

3- دخل القبارصة (سكان جزيرة قبرص) الإسكندرية 22 محرم 767هـ وهي خالية من الجيش المملوكي، حيث عاثوا فيها فسادا وأسروا نحو 4000 أسير، واستولوا على أموال وسبوا النساء وأحكموا السيطرة عليها زهاء الأسبوع، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 14، مكتبة المعارف، بيروت، 1985، ص ص 252-253.

4- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 132.

5- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 259.

6- بالأعرج، المرجع نفسه، ص 132.

7- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 260.



وقد تزامن حكم هذين السلطانين مع ظهور دولة المماليك الشراكسة، وأول سلاطينها الملك الظاهر برقوق، والذي استقام له الأمر من عام 1382/784م إلى عام 1398/801م¹، فقد تمت المهاداة بينهما وبين السلطان المملوكي، الذي أراد أن ينتقي من خيل المغرب، وانتدب لهذه المهمة أحد المماليك الخبراء بشؤون الخيل يدعى قطلوبغا² وذلك بعدما أبطأ عليه وصولها.

وقد حمل الملك الظاهر لهذا الأخير مهمة حمل الهدايا إلى السلطان المريني أبو عامر، علاوة على إيصال هدايا أخرى مخصصة بصاحبي تونس وتلمسان.³

كما وصلت حالة الود والإخاء مبلغها بين الدولتين، دلّ على هذا الوساطة والشّفاة التي أمضاها سلطان المماليك لدى السلطان المريني أبو العباس أحمد، والمخصصة بحق شيخ عرب المعقل، الذي فرّ من سخط السلطان المريني المذكور، حيث اتصل بالسلطان المملوكي بعد أداء فريضة الحج، فجّهز له هذا الأخير هدية وأرسله إلى موطنه بعد أن بعث رسالة إلى فاس يلتمس فيها الشّفاة لشيخ المعقل والمعروف بيوسف بن علي بن غانم.⁴ وتمّ مراد السلطان المملوكي ممّا يدلّ على المتزلة التي بلغها السلاطين المماليك لدى السلاطين المرينيين.

7. العلاقات في عهد أبو سعيد عثمان الثاني:

كان للهجوم المغولي على بلاد الشّام دور كبير في دفع وتيرة العلاقات المرينية المملوكية في عهد السلطان أبو سعيد عثمان (800-823هـ/1398-1420م) المعاصر للسلطان المملوكي الناصر فرج بن الظاهر برقوق والذي كانت فترة حكمه من سنة 801هـ/1399م إلى 815هـ/1412م⁵، وقد احتفظ لنا القلقشندي على نص رسالتين متبادلتين في هذا العهد إحداهما مغربية⁶ وأخرى مشرقية.⁷

فقد بادرت الرسالة المغربية بتهنئة الملك الناصر فرج من إيقاف الزحف المغولي بالشّام بقيادة تيمورلنك، وما عزم عليه السلطان المريني في صدّ العدوان المغولي في حالة استمراره⁸،

1- سيد باز العريني، المماليك، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت)، ص 268.

2- (قطلو) نعت مشهور الاستعمال في أواسط آسيا معناها المبارك ويأتي بعده النعت (بغا) أو (بوغا) ومعناه الفحل أي بمعنى الفحل المبارك، عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 260.

3- المنوني، المرجع السابق، ص ص 185-186.

4- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 260. بالأعرج، المرجع السابق، ص 133.

5- سيد باز العريني، المرجع السابق، ص 268.

6- القلقشندي، صبح الأعشى... المصدر السابق، ج 8، ص ص 103-106.

7- نفسه، ج 7، ص ص 407-411.

8- المنوني، المرجع السابق، ص 167.



كما قام عبد الرحمن بن خلدون بالدور الأساس في نقل هذه الأخبار إلى السلطان المريني، كونه شاهد عيان لهذه الأحداث، حيث رافق الناصر فرج إلى الشام وشهد المناوشات الأولى بين الجيشين المملوكي و المغولي بظاهر دمشق سنة 796هـ/1394م¹، هذا بعدما قتل السلطان الناصر فرج رسل تيمورلنك واتفق مع العثمانيين على صدّ الهجوم المغولي².

وبعد أن باغتت فتنة السلطان المملوكي والتي اضطرت على أثرها للانسحاب إلى الديار المصرية³ نذكر أن القضاة والفقهاء ومن جملتهم ابن خلدون- اتفقوا على طلب الأمان من تيمورلنك الذي أجابهم بذلك- وهكذا وجد ابن خلدون نفسه أمام هذا القائد العظيم، الذي استقبله بصفته قاضي المالكية بمصر، حتى قيل أنه كان يرتدي زي المغاربة في هذا اللقاء⁴ و كان الترجمان بينهما هو الفقيه المعتزلي عبد الجبار بن النعمان الحنفي الخوارزمي (ت 808هـ/1406م)⁵ وقد دار بين تيمورلنك وابن خلدون حديث مطول، كان محوره هو التعريف ببلاد المغرب وأشهر مدنها، ولم يكتف الأمر عند هذا الحد، بل إن السلطان التتري طلب من ابن خلدون أن يؤلف له كتابا يدقق له تفاصيل ما ذكر، وقد استجاب له هذا الأخير إلى مراده⁶، واستطاع أن يصرف شره بفضل فطنته وكياسته، حيث سمح له بالعودة إلى مصر، ومنها عجل في تحرير رسالة إلى السلطان المريني يفصل له فيها ظروف الحادثة، ويعرفه بتاريخ المغول، ويطلععه على الأحداث التي حدثت بالشام⁷.

ويظهر من خلال ما حدث مع ابن خلدون، أن السلطان تيمورلنك، كان يحاول أن يجمع صورة مجملة عن بلاد المغرب الإسلامي، إذ أنها البلاد التي تلي الديار المصرية مباشرة، وملاحمها تكاد تكون منعدمة لدى هذا العنصر الشرقي.

يعزز هذا الرأي، التساؤل الذي يطرح بخصوص الفائدة التي يجنيها قائد منهمك بالتوسعات والحروب في المشرق، من مؤلف يتحدث عن بلاد بعيدة، كما يتجلى من خلال رسالة ابن خلدون، أنها كانت جوابا على كتاب سابق بعث به السلطان أبو سعيد لابن خلدون.

¹ - عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 261.

² - سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، العربية، بيروت، 1972، ص ص 155-156.

³ - عبد الرحمن بن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج 7، ص ص 728-729.

⁴ - المقري، نفح الطيب... المصدر السابق، ج 2، ص 521.

⁵ - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 134.

⁶ - عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 261.

⁷ - بالأعرج، المرجع السابق، ص 135.



وبعد انقلاب السلطان المملوكي إلى القاهرة - عقب الأحداث المذكورة - راسل سلطان المرينيين برسالة من إنشاء القلقشندي¹، تفيد بوصول السفير المريني، وإحاطة جنابه بالأحداث التي اعترت معسكر المماليك، من إشاعة مفادها أن التتر قد زحفوا على مصر، مما اضطر السلطان إلى العودة إلى مقر الحكم لحماية الدولة²، وانتهى الموقف بالمفاوضة بين الجانبين، وتوجّ بالصالح وانتفاء الخطر التتري عن أراضي الدولة المملوكية.³

الخاتمة:

ولقد رأينا من خلال هذا الاستعراض للعلاقات المغربية المشرقية - حسب ما توفر لدينا من معلومات- أن السّمت العام الذي جرى عليه سلاطين بني مرّين ونظرائهم من المماليك، هو العلاقة الودّية الأخوية، والتّقارب في وجهات النّظر حول قضايا العالم الإسلامي، سواء ما تعلّق بمغربه أو مشرقه، كما أن المطلع على العلاقات المملوكية بالمغرب الإسلامي إجمالاً، يلحظ تميّزها بالمرينيين أكثر من غيرها من أقطار بلاد المغرب، وقد عنيت البعثات المرينية عناية كبيرة برحلة الحج والتّحسيس على الأماكن المقدسة، وقد حظي مظهر المهادة بالقسم الأكبر في الإسفار عن عمق المودة والأخوة الحاصلة بين الطرفين، وهو أيضاً يعبر عن رفاهية الدّولتين، والتي بلغت مبلغاً كبيراً يأخذ بألباب المتفرّفين.

¹ - عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 262.

² - المنوني، المرجع السابق، ص 188.

³ - القلقشندي، المصدر السابق، ج 7، ص ص 407-411.



قائمة الببليوغرافيا:

1. ابن أبي الزرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، 1972
2. ابن الأحمر، روضة النسر في دولة بني مرين، المطبعة الملكية، الرباط، 1962
3. ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بوع قبل الاحتلام وما يجر ذلك من شجون الكلام، تر: أحمد مختار العبادي، إبراهيم الكناني، ج1، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964
4. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج2، المطبعة الحيدرية، النجف، 1969
5. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: إبراهيم طرخان ج15، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1972
6. ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح: محمد أمين، ج5، دار الكتب، القاهرة، 1990
7. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح: محمد سيد جاد الحق، ج1، مطبعة المدني، القاهرة، 1966
8. ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تر: محب الدين الخطيب، ج1، دار الكتب السلفية
9. ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تر: محمد الأحمد أبو النور، ج2، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة
10. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، مكتبة المعارف، بيروت، 1985
11. ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تح: ماري خيسوس باغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981
12. أبو العباس أحمد المقري، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تر: إحسان عباس، ج1، دار صادر، بيروت، 1988
13. أبو عمر محمد، نبذة عن كتاب صبح الأعشى للقلقشندي من موقع: www.ajury.com
14. بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح: محمد أمين، ج4، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1987
15. راجع مغراوي، منهج ابن الخطيب في التأريخ للمشرق من خلال تحقيق الجزء الأول من كتاب أعمال الأعلام فيمن بوع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من كلام، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، 2000
16. السخاوي، الضوء الأملع لأهل القرن التاسع، ج2، دار مكتبة الحياة، بيروت
17. سيد باز العريني، الممالك، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت
18. عبد الرحمن بالأعرج، علاقات دول المغرب الإسلامي بدولة الممالك سياسيا وثقافيا بين القرنين السابع والتاسع الهجريين/13-15م، رسالة دكتوراه في تاريخ المغرب الاسلامي، قسم التاريخ والآثار، جامعة أبوبكر بلقايد، تلمسان، 2013



19. عبد الرحمن بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، علق عليها: محمد بن تاوويت الطنجي، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1951م
20. عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج5، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981
21. عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1972
22. عبد الهادي التازي، الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب، ج2، دار نشر المعرفة، الرباط
23. القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج8، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1985
24. محمد المنوني، ورقات عن الحضارة المرينية في عصر بني مرين، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش
25. المقرئزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تر: مصطفى زيادة، ج2، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1972
26. الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج3، تح: محمد وجعفر الناصري، دار الكتب، الدار البيضاء، 1954
27. يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح: عبد الحميد حاجيات، ج1، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980